**بيمارستان أحمد بن طولون في القاهرة :**

أنشأه أحمد بن طولون الذي حكم مصر والشام والثغور، وذلك في عام ٢٥٩هـ وكان بمثابة مستشفى وكلية طب، وجعل فيه خزانة كتب احتوت على ما يزيد على مائة ألف مجلد، لم تكن في علوم الطب وحدها، بل في تخصصات متنوعة[١]، ورغم أننا نقف موقفاً حذراً من الرقم إلا أننا نستدل من الخبر على قدم العناية بالمكتبات في المستشفيات في التاريخ الإسلامي.

**البيمارستان العضدي في بغداد :**

وأوجد عضد الدولة البويهي في القرن الرابع الهجري مارستاناً في بغداد سمي باسمه ألحقت به مكتبة كبيرة[٢].

**بيمارستان نور الدين زنكي في دمشق :**

وهو من الأوقاف التي عملت في عهد السلطان نور الدين محمود بن زنكي، وعمل فيه الطبيب أبو المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ «وكان نور الدين قد أوقف جملة كثيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخزانتين اللتين في صدر الإيوان»[٣].

**المارستان المنصوري في القاهرة :**

وحظي هذا المارستان باهتمام الواقفين، فكان من بينهم علاء الدين علي بن علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المعروف بابن النفيس المتوفى سنة ٦٨٧هـ «انتهت إليه رئاسة الطب، وكانت وفاته بالقاهرة.. وأوقف داره وكتبه وما يتعلق به على المارستان المنصوري»[٤].

**ب ــ الوقف على الربط الخانقاهات :**

والربط جمع رباط وهي بشكل عام مأوى للفقراء والغرباء وعابري السبيل، ومثلها الخانقاهات ومفردها خانقاه، كما أنها كانت تستخدم في بعض الأوقات لإيواء الصوفية، ويذكر المقريزي أن الخانقاهات «حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سنى الهجرة لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى»[٥]، كما يقول عن الرباط بأنه «هو بيت الصوفية ومنزلهم ولكل قوم دارهم والرباط دارهم»[٦]، ويذكر أحد

الباحثين المعاصرين أن الربط والخانقاهات كانتا «تعمل جنباً إلى جنب مع المدارس على رعاية شؤون الطلبة الفقراء وإيوائهم»[٧].

والملاحظ أن أغلب الربط والخانقاهات كانت تجاور المدارس والجوامع وبالتالي فهي تشبه إلى حد كبير مساكن الطلاب، ولم يكن بعضها يخلو من علماء يسكنون فيها مع طلابهم... ومن هنا فقد أنشئت بداخلها مكتبات كي يلجأ إليها الطلاب عند الرغبة في البحث والمطالعة خارج أوقات الدراسة الرسمية.

ومن أشهر الربط التي كانت تضم مكتبات :

**الرباط الطاهري في بغداد:**

الذي أنشأه الخليفة العباسي الناصر لدين الله عام ٥٨٩هـ وكان موقعه في الحريم الطاهري غربي بغداد.[٨].

ووصف بأنه من أحسن الربط[٩]، وكعادة الخليفة الناصر لدين الله الذي كان مهتماً بوقف الكتب رغبة منه في إشاعة العلم والمعرفة فقد نقل إليه كتباً كثيرة كانت من أحسن الكتب كما يصفها ابن الأثير[١٠].

ويذهب بنا الظن إلى أن الخليفة الناصر لدين الله ذلك المغرم بالكتب، والمحب للمكتبات أول من أشاع ظاهرة مكتبة الرباط، فاقتدي به فيما بعد حتى عمت هذه الظاهرة، فتكونت مكتبات كبيرة في ربط مختلفة في أرجاء العالم الإسلامي، واشتهر أمرها حتى أصبحت تقصد من قبل العلماء.

**رباط المأمونية في بغداد:**

ويبدو أن هذا الرباط كان على درجة كبيرة من الأهمية، وأن مجموعات الكتب التي وقفت فيه بلغت حداً جعل منها دار كتب تحفل بالأعمال النادرة وتستقطب العلماء فيقصدونها للبحث والنقاش، ويتولى أمر الإشراف عليها أعلام مشاهير، كل ذلك نستخلصه مما ذكره ياقوت الحموى نقلاً عن محب الدين محمد بن النجار حيث يقول :

حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية، وخازنها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله فجرى حديث المعري فذمه الخازن، وقال كان عندي في الخزانة كتاب في تصانيفه فغسلته، فقال له: الوجيه، وأي شيء كان هذا الكتاب قال: كان كتاب نقض القرآن. فقال له: أخطأت غسله فعجب الناس منه وتغامزوا عليه، واستشاط ابن هبة الله وقال: مثلك ينهى عن هذا؟ قال: نعم، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن، أو خير منه، أو دونه فإذا كان مثله أو خيراً منه وحاشى لله أن يكون ذلك فلا يجب أن يفرط في مثله، وإن كان دونه وذلك ما لا شك فيه فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه.. فاستحسن الجماعة قوله، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت[١١].

ويبدو أن هذه الحادثة وقعت في فترة تعود إلى نهاية القرن السادس الهجري أو أوائل القرن السابع نظراً لأن الوجيه النحوى وهو المبارك بن المبارك بن سعيد بن الدهان توفي في عام ٦١٢هـ، وتردد مثل الوجيه على هذه المكتبة يدلل على أنها كانت جليلة القدر في ذلك الزمان. فقد كان من علماء عصره المشاهير، وكان يدرس النحو بالمدرسة النظامية، ويعتبر ياقوت الحموي أحد الذين تتلمذوا عليه.

## رباط ربيع في مكة :

وصاحب هذا الرباط هو علي بن يوسف بن أيوب، الملك الأفضل ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين، المتوفى سنة ٦٢٢هـ، وقد عمره في أجياد وعرف برباط ربيع، ووقفه على فقراء المسملين الغرباء في عام ٥٩٤[١٢]، ووقف فيه كتباً كان من بينها المجمل في اللغة لابن فارس، والاستيعاب لابن عبد البر[١٣].

وتركزت مجموعات وقفية أخرى في هذا الرباط لتكون مع مجموعة الملك الأفضل مكتبة كبيرة استفاد منها سكان الرباط وغيرهم من سكان مكة والقادمين عليها، وكان من الواقفين محمد بن عيسى بن سلمان بن علي اليمني الشريشي ابن خشيش المتوفى سنة ٦٧٤هـ الذي نظم التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي، وشرحه في أربعة مجلدات ثم وقفهما في هذا الرباط[١٤].

كما وقف عليه كتباً كثيرة عبد الله بن أبي بكر الكردي المتوفي سنة ٧٨٥هـ[١٥].

ومما يدلل على أهمية هذا الرباط ومكتبته، ما عمله علي بن محمد بن سند المصري الفراش بالمسجد الحرام والمتوفي في سنة ٨٢٧هـ إذ أنه «عانى التجارة بمصر ووقف كتباً اقتناها وجعل مقرها برباط ربيع من مكة»[١٦].

ويبدو من النصوص السابقة أن مكتبة هذا الرباط كانت أهم مكتبة في مكة المكرمة طوال فترة تزيد على مائتي عام.

**رباط الشرابي في مكة المكرمة :**

ورغب الأمير شرف الدين إقبال بن عبد الله الشرابي المستنصري العباسي المتوفى سنة ٦٣٥هـ ببغداد في إقامة مشاريع خيرية في مكة المكرمة، فعزم على إنشاء رباط فيها، غير أن ذلك لم يتحقق إلا بعد وفاته حيث تولى عمارته في سنة ٦٤١هـ نيابة عنه أبي الشهاب ريحان، وكان موقعه عند باب بنى شيبة، ووقفه عن موكله شرف الدين إقبال، ووقف عليه أوقافاً بمكة، «ووقف عليه كتباً في فنون العلم نفيسة..»[١٧].

**رباط الزوزني في بغداد :**

وكانت فيه مكتبة تولى الإشراف عليها علي بن أحمد بن أبي الحسن المؤدب وقد ذكر ذلك ابن النجار حيث يقول: «سمع منه جماعة من المتصوفة برباط الزوزني ورأيته فيه، وكان يتولى خزانة الكتب به»[١٨].

**رباط ابن النيار في بغداد :**

ويذكر ابن الفوطي أن عز الدين أبا المكارم الحسين بن أبي منصور البغدادي ابن النيار الأسدي أنشأ رباطاً في سنة تسع وأربعين وستمائة «مجاوراً لداره بقراح ابن أبي الشحم، وأسكن فيه جماعة من الصوفية وأجرى لهم الجرايات من خالص ماله وأنشأ به خزانة الكتب النفيسة والخطوط المنسوبة»[١٩].

**رباط السدرة بمكة المكرمة :**

ويشير الأسنوى المتوفى سنة ٧٧٢هـ إلى أن أبا خلف الطبري محمد بن عبد

الملك السلمي ألف كتاباً اسمه المعين كانت منه نسخة المصنف وقفاً برباط السدرة بمكة،[٢٠] وهذا يعني أن الرباط كان يضم مجموعة أخرى من الكتب.

**رباط الأبرقوهي في مكة :**

وصاحب هذا الرباط هو شاه شجاع اليزدي سلطان فارس المتوفى سنة ٧٨٧هـ، وقد أسند عمارته إلى غياث الدين الأبرقوهي فنسب إليه، وقد وقف فيه السلطان مجموعة من الكتب ضمن أعمال خيرية أخرى نفذها بمكة[٢١].

**رباط الخوزي في مكة :**

وأسسه الأمير قرامر بن محمود الأقدري الفارسي حوالي عام ٦١٧هـ[٢٢] وضم مكتبة تكونت من مجموعات وقفية جعلت فيه على مر السنين، من بينها مجموعة محمود بن جمال الدين أبي طاهر الهروي الناسخ المتوفى سنة ٧٩٦هـ، والذي كان يسكن في هذا الرباط، و«كتب بخطه الكثير، ووقف كتباً في الحديث والفقه وجعل مقرها برباط الخوزة بمكة»[٢٣] ومجموعة أحمد الشهاب المصري التروجي المتوفى سنة ٨١٢هـ، وقد أشار إليها الفاسي فقال: «بلغني أنه وقف عدة كتب وجعل مقرها برباط الخوزي من مكة، وبه كان يسكن»[٢٤] وقد نقل النص السخاوي وأضاف «وفيه توفي»[٢٥].

**رباط الموفق في مكة :**

وصاحبه القاضي الموفق جمال الدين علي بن عبد الوهاب الأسكندري، وقفه على فقراء العرب الغرباء ذوي الحاجة في سنة ٦٠٤هـ[٢٦].

وقد ذكر العياشي المتوفي سنة ١٠٩٠هـ أنه اطلع على عدة أجزاء من رحلة ابن رشيد بمكة عند شخص يدعى أبو المهدي، وكانت في وقف المغاربة برباط الموفق[٢٧]، والإشارة تدل على وجود مكتبة في هذا الرباط في ذلك التاريخ.

**رباط الصفا بمكة المكرمة**

وقف فيه إبراهيم بن عيسى بن إبراهيم الشرعبي المتوفى سنة ٨٩٦هـ «كتباً حسنة» وجعل الناظر عليها ابن العراقي[٢٨].

**رباط قايتباي في مكة :**

وعمل السلطان المملوكي قايتباي مشاريع خيرية معتمدة على الوقف في مكة المكرمة، كان من بينها إنشاء رباط إلى جوار مدرسته التي أقامها بالقرب من الحرم المكي، وقد اطلع العياشي على نسخة من تاريخ الإسلام للذهبي في مكتبة هذا الرباط فقال: «ومما رأيته من الكتب الغريبة بمكة تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي وهو عشرة أجزاء كبار على السنين وهو موجود في وقف قايت باي بمكة في رباطه المعروف وقد رأيت منه أجزاء وطالعت بعضها»[٢٩].

**رباط قراء باشي بالمدينة :**

أسسه عبد الرحمن أفندي في عام ١٠٣١هـ، وكانت فيه مكتبة، أضيفت عليها مجموعات وقفية خلال مراحل متعددة، من بينها مجموعة علي رضا بن إبراهيم أدهم.[٣٠].

**رباط عثمان بن عفان بالمدينة :**

وهو من أوقاف المغاربة، وكان يضم مكتبة معظم كتبها في الفقه المالكي على بعضها أسماء واقفيها، من مثل حسونة البسطي وعبد الحافظ الحجاجي، وكانت مكتبة هذا الرباط متميزة على مكتبات المدينة المنورة في أوائل القرن الرابع عشر بأنها كانت تسمح بالإعارة الخارجية في مقابل سند يبقى لدى المكتبي إلى حين إعادة الكتاب[٣١].

**رباط الجبرت بالمدينة :**

وفيه مكتبة صغيرة تكونت من مجموعات وقفية عديدة[٣٢].

**رباط مظهر الفاروقي بالمدينة :**

وكانت مكتبة هذا الرباط مشهورة حتى فترة قريبة يتردد عليها الراغبون في الاطلاع على بعض النفائس التي تحتويها، والتي كان من بينها تاريخ المدينة لعمر ابن شبة، وقد صورت منها مخطوطات محفوظة حالياً في قسم المخطوطات بمكتبة جامعة الملك سعود.

ويعود تاريخ هذه المكتبة إلى عام ١٢٩١هـ وهو العام الذي أنشيء فيه الرباط

على يد محمد مظهر الفاروقي، وكان هذا الرباط أهم ربط المدينة في أوائل القرن الرابع عشر حتى وصفه أحدهم قائلاً «ولا أعظم منه رباطاً بالمدينة المنورة»[٣٣].

* * *

ولا يختلف الخانقاه كثيراً من حيث الوظيفة عن الرباط، وإن كان يرتبط بشكل أوضح بالصوفية، كما أن سكانه عادة لهم صلة بالعلم أكبر من سكان الرباط، ورغم ذلك فلم يشتهر أي من الخوانق بوجود مكتبة فيه إلا خانقاه السميساطية في دمشق الذي يشار إليه أحياناً برباط الصوفية المعروفة بالسميساطي[٣٤].

**خانقة السميساطية في دمشق :**

وأقدم من وقف كتباً في الخانقاه السميساطية أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن البندهي المتوفى سنة ٥٤٨هـ، الذي حصل على مجموعة كبيرة من الكتب، أكثرها من خزائن حلب عندما سمح له صلاح الدين الأيوبي بأن يأخذ منها ما يريد، فحصل على كتب كثيرة وقفها في السميساطية[٣٥].

ويبدو أن مجموعة البندهي هذا جعلت لمكتبة السميساطية قيمة كبيرة فقصدها العلماء ووقف عليها آخرون كتباً كثيرة، كان من بينهم أبو البقاء التفليسي ثابت بن تاوان المتوفى سنة ٦٣١هـ الذي وقف كتبه عليها[٣٦]، وصفي الدين محمود بن محمد بن حامد القرافي المتوفى سنة ٧٢٣هـ[٣٧]، وأبو سعيد صلاح الدين خليل بن كليكيدي بن عبد الله العلائي الدمشقي سبط البرهان الذهبي المتوفى سنة ٧٦١ حيث وقف أجزاءه فيها[٣٨]، وعلاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر الوادعي الكندي الاسكندري الدمشقي المتوفى سنة ٧١٦هـ، الذي جمع تذكرة في نحو من خمسين مجلداً في علوم مختلفة أطلق عليها (التذكرة الكندية) ثم وقفها في مكتبة السميساطية[٣٩].

ولعل شمس الدين أبا العلاء محمد بن أبي بكر البخاري الحنفي المتوفى سنة ٧٥٦ في ماردين والذي كان من شيوخ المذهب وقف كتبه فيها رغم عدم النص على اسمها واكتفاء المصدر بالقول: «ووقف أجزاءه بالخانقاه»[٤٠].